



## OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 2025-11-19

تاريخ القبول: 2026-3-1

## في الهرمنيوطيقا: عودة لتفسير الثعلبي

وليد صالح

ترجمة:

أحمد شكري مجاهد<sup>(1)</sup>[ahmadshokry89@yahoo.com](mailto:ahmadshokry89@yahoo.com)

## الملخص:

يتناول هذا البحث مشروع الثعلبي التفسيري من خلال كتابه الكشف والبيان، بوصفه أحد أهم المنعطفات في تاريخ التفسير السني في العصر الوسيط، مع التركيز على أبعاده الهرمنيوطيقية والمعرفية والعقدية. ويسعى البحث إلى إبراز الكيفية التي أعاد بها الثعلبي تشكيل فن التفسير، عبر بناء نموذج موسوعي استوعب الفيلولوجيا، والحديث النبوي، والتأويل الإشاري، والسرد القصصي، والجدل العقدي، ضمن رؤية سنية متماسكة هدفت إلى تثبيت مركزية القرآن في الحياة الفكرية الإسلامية. كما يدرس البحث دور الثعلبي في معالجة التوتر بين الفيلولوجيا والعقيدة، وفي دمج الزعة الوعظية والروحانية داخل التفسير، إلى جانب توظيف الأخبار الشيعية والتأويلات الصوفية ضمن أفق سني يحافظ على التوازن المذهبي. وقد خلص البحث إلى أن الثعلبي لم يكن مجرد ناقل للمأثور التفسيري، بل كان مجددًا لمنهج التفسير السني، استطاع أن يطور نموذجًا هرمنيوطيقيًا مرئيًا مكن التفسير من استيعاب التحولات الفكرية والثقافية في العصر الوسيط. كما بيّن أن تفسير الكشف والبيان أسهم في تأسيس ما يمكن تسميته بالتفسير الموسوعي الكلاسيكي، وأثر بعمق في معظم التفاسير اللاحقة، رغم ما تعرض له من تهميش في السياق السني نتيجة السجال السني الشيعي ونقد ابن تيمية له. ويؤكد البحث في ختامه ضرورة إعادة الاعتبار لتراث التفسير الوسيط بوصفه مدخلًا أساسيًا لفهم التاريخ الفكري الإسلامي.

## الكلمات المفتاحية:

الهرمنيوطيقا، تفسير الثعلبي، التفسير الموسوعي، التأويل السني، الفيلولوجيا القرآنية.

(1) طبيب ومترجم مصري، حاصل على جائزة الشيخ حمد للترجمة- الفنة التشجيعية. من ترجماته: تطور المنطق العربي (1200-1800)- خالد الروهب، تاريخ الفكر الإسلامي في القرن السابع عشر- خالد الروهب.

للاقتباس: صالح، وليد، في الهرمنيوطيقا: عودة لتفسير الثعلبي، ترجمة: أحمد شكري مجاهد، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج10، ع2، 2026، 160 - 179.

© نُشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص بتنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان ما إذا أُجريت عليه أي تعديلات، ولا يجوز استخدام هذا البحث لأغراض تجارية

## OPEN ACCESS

Received: 2025-3-10

Accepted: 2025-5-20



## In Hermeneutics: A Return to Al-Tha'labī's Exegesis

Waleed Saleh

Translated by: Ahmed Shukri Mujahid<sup>(2)</sup>[ahmadshokry89@yahoo.com](mailto:ahmadshokry89@yahoo.com)**Abstract:**

This study explores Al-Tha'labī's exegetical project through Al-Kashf wa al-Bayān, framing it as a decisive turning point in medieval Sunni Tafsīr. It highlights how Al-Tha'labī reshaped exegesis into an encyclopedic model that wove together philology, Hadith, allegorical interpretation, narrative traditions, and doctrinal polemics, thereby reinforcing the Qur'an's centrality in Islamic intellectual life. The research emphasizes his ability to balance philological precision with doctrinal concerns, while also integrating homiletic and spiritual elements—including Shi'i reports and Sufi insights—within a Sunni framework that maintained theological equilibrium. Far from being a mere transmitter of tradition, Al-Tha'labī emerges as an innovator who developed a flexible hermeneutical methodology capable of accommodating the cultural and intellectual transformations of his era. The study concludes that Al-Kashf wa al-Bayān laid the groundwork for "classical encyclopedic exegesis," profoundly shaping subsequent works despite later marginalization due to sectarian polemics and critiques from figures like Ibn Taymiyyah. Ultimately, it underscores the need to rehabilitate medieval exegetical legacies as vital gateways to understanding the intellectual history of Islam.

**Keywords:**

Hermeneutics, Al-Tha'labi's Exegesis, Encyclopedic Exegesis, Sunni Interpretation, Quranic Philology.

(2) An Egyptian doctor and translator, winner of the Sheikh Hamad Award for Translation - Encouragement Category. Among his translations are: The Development of Arabic Logic (1200-1800) - Khaled Al-Ruwayheb, The History of Islamic Thought in the Seventeenth Century - Khaled Al-Ruwayheb.

**Cite this article as:** Saleh, Waleed, In Hermeneutics: A Return to Al-Tha'labī's Exegesis, translated by Ahmed Shukri Mujahid, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 10, issue 2, 2026, 160- 179.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read, and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

كان الثعلبي (ت. 1027/427) من أهم مفسري القرآن الكريم في العالم الإسلامي في العصر الوسيط. بيد أن ميراث تفسيره «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» - «الكشف» اختصارًا فيما يلي<sup>(3)</sup> - لم يُشرع في تناوله بالدراسة إلا مؤخرًا. دشن الثعلبي المنهج الكلاسيكي الرفيع في تفسير القرآن، وظل لقرون أهم مصدر للمفسرين من بعده سواء عزوا إليه ذلك صراحة أم لم يفعلوا، وسواء نقلوا منه مباشرة أو بواسطة. وفوق ذلك صار الكشف المؤلف السني الذي أكثر المناظرون الشيعة، بل أفرطوا في استعماله، في سجلاتهم مع السنة. وقد دفع ذلك ابن تيمية (ت. 1328/728) إلى شن نقد قاس على الثعلبي، في محاولة لتقويض استعمال الشيعة لهذا العمل. وأفضى الحال إلى أن قلل علماء أهل السنة من أهمية كتاب الكشف، وتوقفوا عن عدّه في الكتب المعتمدة. وبحلول الزمن الذي كتب فيه مؤرخو التفسير أهل السنة تاريخ فن التفسير، كان الثعلبي «شخصًا غير مرغوب فيه» في المجال. وعلى هذا فإن تاريخ ميراث تفسير الثعلبي يوثق تطور فن التفسير وكذلك السجال السني الشيعي. وزادت الطبعة التي نشرت مؤخرًا من الكشف بتحقيق عالم شيعي التاريخ المتقلب لهذا الكتاب تعقيدًا. ومع تزايد حدة السجال السني الشيعي في العقود الأخيرة، هرع علماء الشيعة المعاصرون المدركون لأهمية هذا الكتاب إلى إعداده للنشر (الثعلبي 2002). ونتج عن ذلك نشرة سقيمة لا فائدة منها لمن يروم دراسة هذا العمل دراسة متفحصة. وعلى هذا فما يزال واحدًا من أهم التفاسير في العصر الوسيط غير منشور نشرة نقدية (Saleh 2004: 229-42). بل والأنكى من ذلك أن هذه النسخة الرديئة يصعب الحصول عليها.

تضافرت خصائص عدة في الكشف في تبوئه هذه المكانة البارزة في تاريخ التفسير. فبداية، لم يشرع الثعلبي في كتابة تفسير جديد فحسب، بل بدأ بدراسة المجال بأكمله وتقييم أهم توجهاته. إن مقدمة «الكشف» لحظة مهمة في تطور فن التفسير: فقد اتخذت موقفًا واعيًا بذاتها ومنهجها، وتقدم عرضًا مفصلاً للمجال كما كان عليه وقتئذ. يعرف القراء تمام المعرفة رأي الثعلبي في أعلام هذا المجال، ولماذا استبعد تيارات معينة (وخصوصًا التراث المعتزلي في التفسير). وفوق ذلك كان من أفراد معدودين من مفسري العصر الوسيط الذين ذكروا كل مصادره بالتفصيل. وقد استعمل ما يزيد عن مائة كتاب، إلى جانب ما دونه من دروسه التي حضرها على ما يزيد على 300 عالم درس على أيديهم. ومن ثم فإن مقدمة تفسيره وصف دقيق لما عليه مجال التفسير قبيل مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر

(3) أحيانًا ما ستكون الإشارة في هذه الترجمة بعبارة «تفسير الثعلبي» بحسب ما يقتضيه السياق اللغوي. (المترجم)

الميلادي (Goldfeld 1984). ولم يُعرف له مماثل في قائمة مصادره التي أوردها من جهة سعة استيعابها ودقتها التفصيلية: فلم يرض باستعمال نسخة واحدة من أحد الكتب، فاستعمل كل ما وقف عليه من إبرازاته - بل بلغ الأمر أن استعمل أربع إبرازات لكتاب واحد. حتى أنه جمع مادة تفسيره العلمية من دون اعتماد على الطبري (ت. 923/310) حتى صار لنا الآن أن نستعمل «الكشف» مع تفسير الطبري لدراسة المرحلة المبكرة من تفسير القرآن. ونزيد، أن «الكشف»، إذا جُمع إلى المادة المتاحة بين أيدينا منذ نشر تفسير الطبري، يحفظ لنا التناول الجمعي لعلماء المسلمين للقرآن الكريم حتى القرن الخامس. فلا غنى عن الكشف في دراسة القرن الرابع. وأخيراً، اعتمدت التفاسير اللاحقة روايات الثعلبي مصدرًا لتفسير السلف، بعد حذف أسانيده مع الاحتفاظ بمادته التفسيرية. كان الكشف تفسيرًا مفيدًا لا يطبق المفسرون الاستغناء عنه، وخصوصًا أنه حوى أكثر ما في الطبري وزيادة.

ومع ذلك فلا يمكن اختزال هذا العمل المفصلي في زمنه في كثرة المصادر وحدها. كان الكشف مهمًا لأنه قدم حلولًا لكثير من المشكلات التي قابلت المشروع التفسيري السني، حلولًا أثبتت أنها مرنة ومقنعة لأنها كانت متينة فكرًا ومنهجًا. حولت إعادة صياغة الثعلبي لفن التفسير المجال كله - إلى درجة يمكن للمرء قياسها في مجال كثير من مصادره ما يزال مخطوطًا - وإن تأثيره لظاهر في طيف كامل من مصنفات التفسير في العصر الوسيط. أثبت حل الثعلبي لمأزق منهج التأويل السني كفاءته من خلال ست استراتيجيات تفسيرية كبرى. الأولى، رفض إغراء أن يحدث صدعًا بين التأويلات السنية والفيلولوجيا (فقه اللغة). الثانية، أتاح أن يكون تفسير القرآن مرئيًا بحيث يستوعب أهم التوجهات الروحانية الوعظية السنية. الثالثة، أدمج أسلوب حكي تفسيري في المنظومة الفيلولوجية. الرابعة: حول التفسير إلى أداة حجاج صريحة ضد الفرق المخالفة للسنة. الخامسة: ربط دواوين الحديث النبوي بفن التفسير. وأخيراً، وربما الأهم، حول التفسير إلى فن معقد استوعب تحديات فكرية جديدة من خارج الإطار السني، وهضمها، وجعلها في المسار العام السني غير مستهجنة. وفي رأبي أن تغيير الثعلبي لفن التفسير يبين تبوء التفسير المكانة المركزية في الحياة الفكرية في لأهل السنة في العصر الوسيط؛ ولذلك فإن قصور البحث العلمي المعاصر عن تناول هذا الفن بالدراسة ضمن دراسة التاريخ الفكري العام للإسلام في العصر الوسيط أمر يدعو للأسف. وسأفصل القول في هذه الاستراتيجيات الستة التي اعتمد عليها الثعلبي في حل المضايق التأويلية السنية.

## فك العلاقة المتوترة مع فقه اللغة

نادراً ما يُذكر اكتشاف الفيلولوجيا (فقه اللغة) في زمن مبكر من التراث العربي الإسلامي بما يستحقه أثره الثقافي الثوري. فلا يسعنا تجاهل دور الفيلولوجيا في تقويض أي تأويل بدعي سطحي للقرآن. ويكفي أن نقارن بين محتوى تفسير مقاتل بن سليمان (ت. 767/150) وتفسير الطبري لنلاحظ مدى ما وصلت إليه لغة صناعة التفسير من الإحكام بحلول زمن الطبري. وقد صعب الوضع وجود ذخيرة من الأدب الجاهلي. ولم ير أحد حرجاً يستحي فيه من الله أو يخشى علماء عصره إذا استعان بهذا الأدب الجاهلي الوثني ومنظوره للعالم: كان فيه خمر وفخار وفسوق وعبادة للأوثان، وكُفي الناس مؤونة أن يلوا عنق فقه اللغة لتبديل صورة مشوهة. وسرعان ما اكتسبت فيلولوجيا نبعت من هذه الذخيرة اللغوي جرأة لا ترعوي حين تُستعمل في فهم أي نص آخر، بل حتى في فهم النص الشرعي. وسرعان ما ألزمت الروح الفيلولوجية لهذا العصر المفسرين من أهل السنة أن يُسلموا بوجوب تأسيس تفسير القرآن على الفيلولوجيا، على أنهم لم يكونوا بسذاجة أن يتركوا فن التفسير تحت التحكم الكامل لأداة شعثناء كهذه. لكن المرحلة المبكرة ما قبل الفيلولوجية من التفسير لم تُسقط. بل كانت هذه المرحلة العدة المعتمدة لما يشكل معالم المنظور السني. وهكذا فقد لاحت داخل مناهج التأويل السنية مخاطر أن تطغى الفيلولوجية وتخرج عن حدها. وقد استطاعت مناهج التفسير السنية، بما أولته من اهتمام حق للفيلولوجيا وطرائقها، أن تتفادى مزالق كلامية وعرة إذا انقاد المفسر انقياداً أعمى لما تمليه تلك الأداة على حساب العقيدة الصحيحة. وبينما استحث التفسير مولد الفيلولوجيا العربية، إلا أن الفيلولوجيا عادت، بصور كثيرة، لتقض مضجع التفسير. فلم تكن الفيلولوجيا، في نهاية المطاف، محض خادم مخلص، إذ كان لها أن تكشف عن أسس تأويلية سنية واهية.

كان ادعاء الوصاية الأساسي الذي ظهر من التفسير أمام النخبة العلمية، هو أنه شرح فيلولوجي للقرآن. وعلى هذا، فالافتراض أن أي قارئ للقرآن، إذا كان عنده ما يكفي من العلم بالعربية، فسيخلص إلى ما أقره المفسرين السنة. فقد قرر المفسرون السنة أن القراءة الفيلولوجية للقرآن تُقدم النظرة السنية للعالم. ويسهل دحض هذا التقديم الذاتي والحكم الشخصي. فإن التفسير أساساً مهمة عقائدية استعملت الفيلولوجيا واحدة من أدواتها. وعلى هذا فإن مناهج التفسير السنية بُنيت على مفارقة: فقد أبرزت الفيلولوجيا أداةً ضرورية لفهم القرآن، ومع ذلك فلم يكن للفيلولوجيا الحكم الأخير أو القول الفصل في التفسير. كانت مناهج التفسير السنية، لأجل الحفاظ على قراءتها العقدية

للقرآن مع تقديم تفسير متماسك، على استعداد أن تُسقط القراءة الفيلولوجية (على الرغم من التأكيد الدائم على أن الفيلولوجيا هي سبيل فهم القرآن)، كلما هددت الفيلولوجيا بتقويض قراءة عقديّة سنّية لا تُسعفها الفيلولوجيا.

قدم الطبري، في تفسيره العظيم «جامع البيان» توجيهين من التفسير، عقدي وفيلولوجي، جنبًا إلى جنب، مدعيًا بأن أحدهما لا يناقض الآخر. بيد أن الثعلبي استطاع في تفسيره أن يجمل من مظهر المشروع التفسيري السني، وأن يجعله أكثر موافقة للفيلولوجيا من خلال وسائل شبه-فيلولوجية. كذلك استعين بعلم البلاغة الناشئ حديثًا؛ ويظهر أثر علماء الفيلولوجيا ومعاجمهم الجديدة في «الكشف». والأهم كثيرًا هو استعداد الثعلبي لإسقاط أي تفسير ماثور عن السلف إذا كان ضعيفًا من الناحية الفيلولوجية؛ طالما لم يتسبب إسقاطه في إضعاف النظرة السنّية العقديّة والمنظور السني للعالم. وفوق ذلك أورد الشعر في سياق تفسير القرآن، ولم يكن مجرد خادم للفيلولوجيا. أتيح للشعر، وهو ذروة الإبداع البشري، مكانًا داخل التفسير، ولم يقتصر سبب ذلك على كونه أداة، بل لما فيه من مظاهر فنية. تضافرت آثار هذه الاختيارات بحيث تمنح التفسير المقبول لدى العامة ثقله الفيلولوجي الذي افتقده من قبل (Saleh 2004: 130-140).

وينبغي ألا يغيب عن الاعتبار اختاران كانا أمام الثعلبي ليحل بهما الصدام بين الفيلولوجيا وعلم العقيدة. أولهما التساهل في ربط مناهج التأويل السنّية بالفيلولوجيا، وهو اختيار لقي قبولًا واسعًا لدى كثير من أنصار المذهب السني. وقد سبقتهم إلى ذلك مناهج التأويل الشيعية والصوفية، بحيث يتبين أن مثل هذا الفعل ممكن، بل وبلا معاييب. أما الاختيار المقابل على الطرق الأخر فقد كان كذلك له إغراؤه: وهو إعادة ضبط المذهب السني بحيث يكون أشد تعلقًا بقراءة فيلولوجية عميقة للقرآن. بيد أن كلا الاختيارين سينتج عنه خسارة فكرية عميقة، وهجر لاثنين من أهم أركان المذهب السني: التمسك بالأصول، والاستعلاء المعرفي. ومن ثم فقد كان الثعلبي منشئًا لحل مهم لشد وجذب طال وجوده بين الفيلولوجيا والعقيدة، وقد كان حله، وما يزال، الوسط المرتضى الذي يدعيه المذهب السني. على أنه ينبغي التنبيه إلى أنه قد جرى تناول الاختيارين الآخرين داخل المذهب السني، ولكن من بعد الثعلبي. حاول الواحدي (ت. 1076/468)، أهم تلامذة الثعلبي، في أجل مصنفاته «البيسيط» [في التفسير]، أن يوفق بين المذهب السني والقراءة الفيلولوجية للقرآن. وقد اضطره ذلك إلى مضايق فكرية وعرة لم يستطع الخروج منها فيما يبدو، على ما في منتجه من فوائد وثمرات. أما ابن تيمية فقد

اختار الحل الآخر، وأسقط الفيولوجيا من مقدمته التفسيرية، ومن ثم قوى دعائم (بل وربما أنشأ) أحد أهم تيارات المناهج التأويلية داخل الحظيرة السنية، وهو ما سمّيته الهرمنيوطيقا [مناهج التأويل] الراديكالية (صالح 2004: 227-205).

## التفسير والمعاني الروحانية

لو أننا سنستظهر روحًا سارية في مناهج التأويل عند الثعلبي فستكون بيان رسالة النجاة التي أتى بها القرآن. فيمكن أن يُستظهر من كل آية إخبار برحمة الله ورأفته بعباده المؤمنين. بل ويرى الثعلبي أن الإيمان يلزم منه تمايز وجودي بين المؤمنين وسائر البشر، وقد جعل الثعلبي هذا التمايز صحيحًا قائمًا من الناحية التأويلية للنص القرآني. وقد أكد هاتين الخصيصتين، الإيمان بشفاعة النبي ﷺ لأمته، وذلك مذكور ضمناً في القرآن. لم يترك التفسير موضعًا لشك، في أن المسلم لا يُخلد في النار، مهما فعل. من ناحية أخرى، فقد تحولت تلاوة القرآن في سياق الورع السني إلى واحدة من أرفع مظاهر الاجتهاد في العبادة؛ على الرغم من اعتراضات المحدثين بأن أكثر الآثار الواردة في فضائل سور القرآن لا تثبت، فقد كان الجانب الوجداني من المسألة أقوى من أن يُغلب. بدأ الثعلبي تفسير كل سورة من القرآن بإيراد حديث من هذه الأحاديث في فضائل هذه السورة. عُدت التلاوة في ذاتها من أسباب النجاة. وما أن حصل التوسع في إضفاء خصيصة تحصيل النجاة في الآخرة بتلاوة سور معينة من القرآن، فتكون في التسبب في النجاة كتلاوة القرآن كاملاً، لم يعد يمكن إعادة تحجيمها. كانت الآثار التي أوردتها الثعلبي تفيد أن القرآن، كافيًا بذاته من كل وجه، لتحصيل النجاة، بحيث أن جزءاً منه يمثل الكل، والكل قد تجتمع خصائصه في بعض أجزائه. ومن ثم صار يمكن تحصيل خصيصة النجاة بالقرآن بقراءة سور منه. ولا تفهم مسألة قيام الجزء مكان الكل فيما يتعلق بالقرآن إلا بفهم سياق مفهوم النجاة: فإنما تكون النجاة خالصة للمؤمنين (Saleh 2004: 103-108). كانت نتيجة هذا الرأي إتاحة الفرصة للقرآن أن ينافس غيره من صور العبادة التي روجها الصوفية ومن هنا نحوهم.

إضافة إلى ذلك، حرص الثعلبي على أن يبين أن فحوى الآيات نفسها يفيد تأكيد النجاة مصيرًا للمؤمنين. وتكبد الثعلبي جهداً أن يبين ذلك الجانب من القرآن في غير مظانه. وهنا تجلت قدرة المفسر على جعل القرآن مؤكداً على الرسالة الأولى التي أراد أهل السنة تقديمها على غيرها. واستعمل في ذلك طريقتين: الإيجاب والسلب. فأما الإيجاب فباستظهار دلالة النجاة من آية تبدو في ظاهرها خالية من

أي معنى يفيد تلك الدلالة. وأما السلب فبحصر دلالات الأحكام الإلهية الشديدة على النزعة البشرية العاصية في الكافرين وحدهم، وذلك لضمان تمييز المؤمنين عن الكافرين وجوديًا.

وسأبدأ بمثال لنهج الإيجاب، في تفسير قوله تعالى: «مرج البحرين يلتقيان» (الرحمن: 19)، فهم جميع المفسرين إلى عصر الثعلبي هذه الآية بأنها إشارة إلى الماء العذب والمالح، وأورد الثعلبي التأويلات التي تفيد هذا الفهم. ثم إنه بعد أن أورد تلك الأقوال التفسيرية المأثورة، اقتبح معنى جديدًا: «بين العبد وبين الرب بحران: أحدهما بحر النجاة، وهو القرآن من تعلق به نجا، والثاني بحر الهلاك وهو الدنيا من تمسك بها وركن إليها هلك»<sup>(4)</sup>. ولنشرع في تحليل هذا التأويل. أولاً استلهم الثعلبي من ذكر القرآن للبحر نموذجًا لحياة الإنسان. وقد استقر من آيات كثيرة في القرآن معنى عجز الإنسان أمام ما في البحر من غوامض، حتى ارتبط ذكر البحر بإنعام الله وعقابه (انظر مثلاً: الإسراء 66-70). فلا سلامة في ركوب البحر إلا برحمة الله ولطفه. ولما كانت الحياة نفسها رحلة، يصير اجتياز البحر جزءًا من مسير المؤمن إلى النجاة. ثم إن القرآن قد كَتَبَ بالبحر عن كلام الله (الكهف: 109، لقمان: 27). وعلى هذا، فإن التأويل الذي عرضه الثعلبي تشكيل بارع من الدلالات الكثيرة للبحر في القرآن، وتصبح النجاة رحلة عبر بحر هو القرآن ولا يكون عبوره إلا بالقرآن ذاته. يردد هذا التأويل كذلك صدى القول النبوي الذي يُعلم أن القرآن هو الحكم وهو الحجة على العباد. ولاحظ كيف صار العالم، وهو الأرض الثابتة في أصله، صورة لبحر الهلاك، فهو على صلابته يمكن أن يغمر ويغرق المرء في إغواءاته المهلكة (Saleh 109: 2004). فحقيقة النجاة إذًا على غير ما يخطر على الحدس. ومن المهم التأكيد على أنه ليس في الآية ما يؤيد هذه القراءة المتوسعة خارج كلمة «بحر».

ونضرب مثالًا آخر لمثل هذا التأويل النجاتي، بفهم الثعلبي للآية الخامسة من سورة الضحى «ولسوف يعطيك ربك فترضى». فالآية لا تذكر المؤمنين بشيء؛ فهذا خطاب خاص بين الله ورسوله، وليس للمؤمنين موضع في هذه الصورة. وعلى الرغم من تأكيد القرآن على أن خطاب الله إلى جميع البشر، فإن هذه الآية فيها خطاب مخصوص للرسول. أدخل الثعلبي المؤمنين في هذا المقام الخاص

(4) أورد الثعلبي هذا التأويل نقلًا عن ابن عطاء، وأورده قبل الثعلبي عصره أبو عبد الرحمن السلمي (ت. 412هـ) مسندًا إلى ابن عطاء كذلك في «حقائق التفسير»، انظر: طبعة دار الكتب العلمية، تحقيق سيد عمران، 2/ 294. وقد روى السلمي الخبر عن منصور بن عبد الله عن البزاز عن ابن عطاء (وقد سقط ابن عطاء من طبعة العلمية، والتدارك من مخطوط مكتبة ولي الدين، لوحة 310). والشاهد أن التفسير ليس من قريحة الثعلبي وإنما منقول من تراث صوفي إشاري سابق عليه. ويشير الباحث إلى ذلك في موضع آخر من هذا المقال. (المترجم)

بين الله ورسوله، وحول الآية في الأساس إلى إشارة لنجاة المؤمنين. فيورد الثعلبي أثرًا أن النبي ﷺ لن يرضى وأحد من أمته في النار (Saleh 2004: 124-127). كان هذا نموذجًا لفكر الثعلبي: فجعل رحمة الله وشفاعة النبي ﷺ أمرًا واحدًا هنا؛ وفي هذا التأويل هجوم ضمني على قول المعتزلة بتخليد مرتكب الكبيرة في النار.

أما التأويل النجاتي بالسلب، فمثل تناول الثعلبي لأول آيتين من سورة التكاثر: «أهاكم التكاثر. حتى زرم المقابر» فإن لهجة الخطاب في سورة التكاثر كاملة، لهجة توبيخ للبشر. فالطمع يعمي الإنسان عن رؤية قرب الموت، وأنه سيُسأل يوم القيامة عن ماله فيما أنفقه. وأن معرفة حقيقة الحياة على وجه اليقين لا تحصل لهم إلا متأخرًا (الآية 5). فلو فُهمت السورة على ظاهرها مجردًا، لكان في الخطاب تشكيك في قدرة الإيمان على تغيير الطبيعة البشرية. فلذلك أورد الثعلبي تفسيرًا للآيات يحصر دلالتها في العرب في الجاهلية أو اليهود. وفي كلتا الحالتين لا تتحدث الآيات عن أن الموت يُظهر تفاهة حياة البشر، وإنما تتحدث الآيات عن الطمع الذي يُعمي غير المؤمنين. ومن ثم فإن المؤمنين في معزل عن هذا الحكم، وبقدر خروج المؤمنين عن هذا الوصف، يختلفون عن غيرهم (صالح 2004: 162-164). الوجه الآخر للمذهب السني الورع الروحاني الذي رعاه الثعلبي في تفسيره، هو حس النذير وخطابه. وقد وسع الثعلبي بذلك خطابات موجودة في القرآن فعلاً. وكان الغرض عنا تحويل خطاب القرآن الكريم كاملاً لهذا الخطاب. ورغم اختياري لكلمة «النذير»، إلا أنني في الحقيقة أصف خطبتين خطابيتين تكمل كل واحدة منهما الأخرى: الأولى نذيرية والأخرى تبشيرية، أو ما يعرف في الكتب الورع الإسلامية «الترهيب والترغيب». ثم إنه أدمج في هذين النوعين من الخطاب التفسيري تشديدًا على أوامر الشريعة ونواهيها: فالمرء بين ترغيب وترهيب يدفعانه للوفاء بواجبات الشريعة الإلهية. وكان هذا الجانب من تفسير الثعلبي عاملاً كبيرًا في تلقيه الواسع بالقبول. فالعين لا تخطئ ما في الكتب من مزج بين فقه اللغة وصوت الواعظ الورع الشائع. ففي اللحظة التي يُجر فيها القارئ إلى قراءة قائمة طويلة من المفردات التي جمعها فقهاء اللغة عن مراحل حياة الإنسان، يُدرك المرء بأن حياته زائلة. وهذه المواضع الوعظية هي أكثر المواضع التي يورد فيها الثعلبي أبياتًا من شعر الزهد.

## الرواية والتفسير

واحدة من أهم سمات مناهج التأويل عند الثعلبي، تدقيقه وتطويره لطرائق كانت موجودة فعلاً

في التراث، بحيث تناسب الذائقة الجديدة لجمهوره. وأفضل ما يبين هذه المهارة، تحويله للعناصر السردية في التفسير إلى أسلوب متين على درجة عالية من الإحكام الفني. فعل ذلك بطريقتين: الأولى التفصيل في عناصر موجودة من قبل في الأجزاء السردية من القرآن نفسه، وتحويلها إلى نتاج فني (للاستزادة من ذلك انظر فصل «قصص الأنبياء»). هذا ما أسميه التقنية السردية الكبرى، حيث القصة المتكررة في القرآن تطور في موضع لكي تشمل القصة المعنية، وبهذا تعطي السردية كاملة لما سيكون قصة متكررة في القرآن. أما الطريقة الثانية، فأسلوب السرد الصغير، وفيه تُستعمل الوحدة السردية، متكاملة العناصر، لتفسير آية معينة من دون أن تظهر في سياقات أخرى، والأهم، من دون علاقة ظاهرة بالآية المتناولة. وأسُميت هذه التقنية السردية القصصية. (Saleh 2004: 161-166).

يمكن تمثيل هذه الطريقة الثانية بما جاء في تفسير الآية السابعة من سورة الضحى «ووجدك ضالاً فهدى». فقد كانت هذه الآية موضع إشكال عند المفسرين، إذ فيها إشارة إلى حياة النبي ﷺ قبل النبوة في العصر الجاهلي. وموضع الإشكال القول بعصمة النبي ﷺ، الذي يتضمن في أكمل تقريراته نفي أي تلبس بمظاهر الوثنية والجاهلية عنه ﷺ قبل النبوة. وقد سلك المفسرون سبلاً مختلفة في تأويل الآية. كان مدار غالب تلك السبل على تناول معنى كلمة «ضالاً»؛ وعليه فقد كانت الفيلولوجيا مقوضة لتلك المنازع حتى ولو لم تُستعمل في نقضها. ولكن لم لا نهزم الفيلولوجيا في مضمارها؟ ألا يحتمل المعنى الضلال الحسي الجسدي؟ لما لا يُفهم اللفظ على معناه المعجمي الأصلي مع طرح ما تحمله من معنى مجازي، فُتُستعمل أخص سبُل الفيلولوجيا في هزيمتها؟ ألا يمكن أن يحتمل المعنى أن محمداً ﷺ ضل الطريق طفلاً، وهو ما يحدث لأي طفل في وقت ما من حياته؟ وبرغم ما يبدو في هذه المناورة التأويلية من بساطة، لكن محاسنها كثيرة. فهي سليمة فيلولوجياً، ولو وجدت قصة – أو اختلقت – لتشهد لها، فلن تكون القصة غير معقولة. وقد أورد الثعلبي خمس قصص من هذا القبيل. كلها تحكي عن واقعة في طفولة محمد ﷺ فُقد فيها ثم وُجد ورجع إلى جده. أولى تلك القصص تمثل أقدم مستويات ابتكار هذا التأويل: ضل وهو طفل في شعاب مكة، ثم هداه الله طريق العودة إلى جده. وهذه قصة عارية عن التفاصيل، غرضها صرف الآية عن ظاهرها، ثم اعتُني ببنيتها السردية شيئاً ما، وبتطور أحداثها. لكننا ما أن نصل إلى القصة الخامسة، يكون بين أيدينا قصة طويلة تتضافر فيها معان دالة [موتيفات] عدة لتصنع قصة معجزة تقع في فترة طفولة منقذ الإنسانية العظيم. في هذه القصة يحتشد الكون كله لأجل هذا النبي؛ الكون ينتبه لاختفاء هذا الصبي؛ آلهة العرب القديمة تخاف أن يجده مرة أخرى،

وترفض تلبية سؤال التنبؤ بمكانه؛ ثم ينادي مناد من السماء ليرشد الجد على مكان حفيده. ليجده عند شجرة اليمن، يجذب الأغصان ويعبث بالورق.

استعملت طريقة السردية القصصية استراتيجيات كثيرة لتكون معقولة. فإذا استدعى الأمر يؤخذ اللفظ بمعناه الحقيقي لا المجازي، أو العكس - فيقدم المعنى المجازي ويُؤخر المجازي، وإن لم تجر على ذلك سنن البلاغة العربية. استُعملت معلومات من الإثنوغرافيا (علم خصائص الشعوب)، وشواهد من الشهر، والتوسع في تفاصيل الحكمة القصصية بما في ذلك الحوارات وحديث النفس الفردي (المونولوج)، استُعملت جميعاً لتكسب السردية تماسكاً. وينبغي التنبه إلى أن التأويل المعتمد على السرد القصصي كان طريقة تفسيرية لها قبول، إذ ليس عليها قيود هرمنيوطيقية خلا تماسك القصة.

## التفسير والعقيدة

إن تقرير أنّ تفسير القرآن في العصر الوسيط يغلب عليه النزعة العقديّة لهو من قبيل تقرير الواضحات، ولا سيما إذ قصدنا بالعقيدة علم تعزيز البناء العقدي. لكن ما أشير إليه هنا هو تقرير أشد صراحة لغايات التفسير، من حيث كونه معرفاً ومدافعاً عن المنظور العقدي. أدخل الثعلبي البحث العقدي إلى التفسير، أو على الأقل أدخل منظوراً عقدياً أكثر صراحة. ولم يكد يفوت فرصة لتبيان الفهم السني لأي لآية، وقول أهل السنة في هذه المسألة العقديّة أو تلك، أو كيف أخطأ فيها المخالفون. والخصم في الغالب هم المعتزلة، ثم الشيعة لدرجة أقل. كان الثعلبي لا يفتقر عن الحط على هذين المذهبين وآرائهما وعقائدهما. وقد استطاع الثعلبي إدخال البحث العقدي في التفسير من دون استعمال اللغة الاصطلاحية الكلامية في مناقشاته العقديّة. وهنا كشف عن معدنه الحقيقي، فإذا هو ناصر بارع لمذهب فكري، يسعى، مع تمكنه في اللغة الاصطلاحية الكلامية، إلى تيسيرها لقارئ ليس له دربة بهذا الفن.

وسأكتفي هنا بإيراد مثال واحد على طريقته اللطيفة في تحقيق ذلك. الآية 27 من سورة لقمان «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم<sup>(5)</sup>». فبينما فهم الطبري من الآية تعلقها بكلام الله في نفسه، وليس بكنهه، حقق الثعلبي أمرين بما أورد من شرح لمعاني هذه الآية. الأول، استظهر منها توكيداً على عقيدة أن القرآن غير مخلوق،

(5) تُرجمت خاتمة الآية في الأصل الإنجليزي God is All-hearing, All-seeing: بمعنى سميع بصير، وهو خطأ. (المترجم).

والثاني، رأي فيها تشريعاً لفن التفسير. يقرر الثعلبي أن «هذه الآية تقتضي أن كلامه غير مخلوق لأنه لا نهاية له ولما يتعلّق به من معناه فهو غير مخلوق.» وهنا استعملت القاعدة الكلامية أن غير المتناهي لا يمكن أن يكون مخلوقاً، لئُستدل بها على أن كلام الله، بما أنه لا ينقضي ومن ثم غير متناهٍ، فهو غير مخلوق. وهنا شُرح كلُّ من القاعدة الكلامية، ولزامها بأسلوب تعليمي مبسط، يسهل فهمه وقبوله، فلم يحتج سابق معرفة بعلم العقائد (صالح 2004: 1). فتح الثعلبي باباً للمفسرين من بعده ليبينوا على هذا النهج، حتى صار المذهب السني بعد ذلك يرى الحاجة إلى تحويل التفسير إلى صناعة كلامية، ويظهر هذا التحول في مثل تفسير فخر الدين الرازي (ت. 1209/606).

## الحديث النبوي والتفسير

يقع تضافر الحديث النبوي والعمل التفسيري – وهما أساسا الموروث الديني الإسلامي في العصر الوسيط – في القلب من مشروع الثعلبي في منهجية التأويل (الهرمنيوطيقا)<sup>(6)</sup>. كان هذا الدمج – بوجه ما – ذروة عملية تكامل الجوانب المختلفة من الثقافة الإسلامية في العصر الوسيط. كان الحديث النبوي صرحاً يوشك على الاكتمال بتأليف الدواوين الكبيرة الجامعة وتفصيل علوم الحديث، بمعزل، بوجه ما، عن علم التفسير الذي بلغ أولى محطاته الكبرى بتأليف تفسير الطبري. جمع الثعلبي الاثنين معاً، ودشن ما سيصير بعد ذلك علاقة مستمرة بين خطي التأليف في العصر الوسيط. جُمع بين الوحيين، المكتوب والنبوي أو الشفهي، وبهذا بُني في السياق التفسيري بناء يحاكي شخصية النبي محمد ﷺ الذي كان الفرد الوحيد الذي اجتمع فيه الوحيان: فاجتمع القرآن (بما هو متن يتناوله التفسير) والسنة (بما هي تفسير له) في بناء واحد. صار القرآن – إذ يُفهم من خلال السنة النبوية – كما كان ال نبي محمد ﷺ تجسيداً لما سيمهدى الأمة المسلمة. وأضحى تشكل التفسير تجسداً لكلا الوحيين

(6) بما أن البحث في تراث التفسير في العصر الوسيط ما يزال في مهده، فإن أحكاماً مثل التي سأطرحها في هذا القسم مبدئية لا محالة. وبرغم أن البحث في تفسير ابن أبي حاتم الرازي (ت. 938/327) وابن مردويه (ت. 1010/401) قد يقودني إلى عكس هذه النتيجة، إلا أنني أرى أن دمج الأحاديث غير الواردة في التفسير في كتب التفسير كان صنعة الثعلبي. لكني حين نشرت كتابي عن الثعلبي، لم أكن على دراية كاملة بوجود البحث في جهود هذين العلمين بمزيد تعمق قبل أن أخلص لما خلصت إليه (Saleh 2004: 226). وهذا يسهل قوله ويعسر فعله: فكتاب ابن مردويه مفقود، ويبدو أن ثم خلافاً في القدر الذي وصلنا من تفسير ابن أبي حاتم. وفي الوضع الحالي لا أرى سبباً لتغيير ما خلصت إليه، لكن عندي من عدم اليقين ما يدفعني لبث شكوكي إلى القارئ، وينبغي أن يدعو هذا المتخصصين للاهتمام بهذين العلمين لإزالة الحجب عن تاريخ التفسير. وبما أن الكتاب العظيم الذي ألفه السيوطي (ت. 1505/911) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» جمع لمادة المؤلفين المذكورين آنفاً، فإن الحاجة ملحة لدراسة هذا العمل لمزيد من استيضاح الوضع، وربما تكون تلك الدراسة السبيل الوحيد للخروج من المأزق الذي صنعه ضعف إحاطة الدراسات المعاصرة بهذا التراث.

(الإلهي والنبوي) بمنزلة خليفة للنبي ﷺ يقود الناس ويهديهم. لقد فتح باب إخفاق نظام الخلافة – على الجانب الديني – الباب لبناء العلوم الشرعية بحيث تكون هي وارثة النبوة المحمدية. فكان لأهل السنة في التفسير نبيم الجليل حاضرًا، بما في التفسير من أوامره ونواهيه.

وهنا مسألتان يحسن تناولهما؛ أولاًهما أن غالب الجديد الذي قدمه الثعلبي في تفسيره جاء من خلال إيراد الحديث النبوي. فحين يُفهم من آية بيان رحمة الله وتنجيته للمؤمنين، فإنما يُفهم ذلك، بشكل أو بآخر، من خلال الحديث النبوي. من ذلك، ما جاء في تفسير الآية السابعة من سورة الضحى، وقد سبق الكلام عليها، فإنما جاء الكلام عليها من منظور الحديث. ويزيد على ذلك، أن العناية بالأسلوب الوعظي كانت قد بلغت درجة عالية في مصنفات الحديث، فلم يكن على الثعلبي إلا نقله جملة إلى عمله. أما المسألة الثانية التي يجدر ذكرها هنا، فهي تبعات جمع هذين الوحيين الواقعة على مناهج التأويل السنية. فلو ترك لها الأفضلية لربما سادت هذه الطريقة مشروع التفسيري السني كاملاً، ومما تتضمنه التسليم للحديث النبوي باعتباره مفتاحاً لفك ما يغتلق فهمه من الكلام الإلهي. وطالما كانت طريقة التفسير بالحديث النبوي مضمّنة في نهج موسوعي مسترشداً بالفيلولوجيا، فقد كانت دوماً طريقة يمكن ضبطها. لكن الخطورة كمنّت في الأساس الضمني لهذه الطريقة: وهو أن تعني مساواة معنى كلام الله بالحديث النبوي، استبعاد أي نهج هرمنيوطيقي/تأويلي آخر للقرآن. ونظراً لاتساع المدونة الحديثية، وما هي إلا برهة من الزمان وسيغلب هذا النهج غيره. سميت هذا الاحتمال والنهج «الهرمنيوطيقا الراديكالية»، وأخذ أكثر مسائل دراسات التفسير استرعاء للانتباه هو البحث في تاريخ نزوع الهرمنيوطيقا ذلك إلى الراديكالية. وإلى الآن أرى أن هذه الطريقة لم تبلغ كمال تقريرها حتى ظهور ابن تيمية. ولكن يمكن أن يُنسب ذلك أيضاً إلى ابن أبي حاتم (ت. 938/327). وفي كلا الحالتين، يظل تأثير الثعلبي مركزياً. فإما أنه استشرف ظهور هذا التوجه إذا صح حكيم، أو أن الثعلبي حفظه لمدة أربعة قرون على الأقل، إذا أخطأ حكيم. ومع ذلك، فيظل ما خلص إليه هو الأصل الذي اعتمده أكثر التفاسير الموسوعية، ومن ثم فقد ضمن ثقلاً يوازن الصعود الحتمي للهرمنيوطيقا الراديكالية.

## التفسير مستوعباً للتحديات الجديدة أمام مذهب أهل السنة

أهم ما يمكن أن يُورد من إشكالات على حكيم على الأهمية الثقافية لتفسير العصر الوسيط، أن التفسير كان الوسط الذي يستعوب المذهب السني فيه ويكيف أي تطور يطرأ الثقافة العربية

الإسلامية. بدأ التفسير بالفيلولوجيا، وسُخِّرت بالكامل بتفسير كلام الله، ولكن من دون أن ينصاع التفسير انصياعًا تامًا لقواعد الفيلولوجيا غير الطيبة.

فأما جانب علم العقيدة، فقد كان يمكن رفضه مطلقًا من خلال المنهجية العقدية المتجنبة للخوض في الإشكالات، وكان ذلك متاحًا من خلال أعمال الحنابلة، لكنه مع ذلك كُيِّف وأدخِلت مقدماته إلى التفسير، وإن لم يكن ذلك بنفس لغته الصعبة (وبطبيعة الحال مع الرازي صارت لغته الكلامية لغة التفسير نفسه، وعليه فقد كان التفسير على استعداد حتى للتخلي عن خصيصته، لتجاوز أي عقبة فكرية). وأرد على ذلك بأن التفسير كان يجعل العالم مفهومًا بجعل فهم العالم يبدو نابغًا من كلام الله. ومن ثم فقد كان التفسير وسيلة لإضفاء صبغة الشرعية أكثر من أي شيء. وأكثر ما يظهر ذلك في استعمال الثعلبي للتأويل الصوفي والتعاطف الشيعي مع آل البيت.

يُعلمنا الثعلبي في مقدمته أنه سيضمن التأويل الإشاري في تفسيره (Saleh 2004: 87). ومن الواضح أنه قرأ تفسير السلمي (ت. 1021/412) على مؤلفه نفسه، وضمن جانبًا كبيرًا منه في تفسيره هو. والأهم ممن جهة تاريخ التفسير الإشاري أن الثعلبي نقل عن صوفية غيره ما يبدو أنه قد فُقد ولم يعد متاحًا إلا في تفسيره. ونحتاج دراسة متعمقة للنقول الإشارية وعلاقتها بتفسير السلمي للوصول إلى حكم أدق لهذا الجانب من تفسير الكشف. وكل المؤشرات توحى بأن الثعلبي كان أول من ضمن التفسيرات الإشارية في تفسير معتاد من تفاسير أهل السنة، سابقًا بذلك القشيري (ت. 1072/465) وكذلك الغزالي (ت. 1111/505).

فإذا تبين ذلك علمنا أن محيط دائرة التفسير عن الثعلبي فريد في التاريخ الإسلامي؛ تكاد تستوعب كل مستوى، من أقدم المتقدمين (التفسير المنقول عن ابن عباس) إلى معاصره بما في ذلك التفسير الإشاري. ومن ثم، فإن في اللحظة التي قُدم فيه النهج الفيلولوجي على غيره في التفسير، أُدخل النهج الإشاري كذلك، فجعل القرآن نصًا تُستكشف أسراره من جهتين، جهة عقلية فكرية محضة، وجهة تتجاوز نطاق العقل. فكلام الله يتصف بأنه مبين، وفي الوقت ذاته مليء بالأسرار. ففي الوقت الذي ضُبط فيه النص، تحرر.

ونزيد، أن الثعلبي بتضمينه التفسير الإشاري في تفسيره، أبرز في القرآن أنه أغنى النصوص بطبقات التأويل في الثقافة الإسلامية: فقد كان النص الأوحى الذي يمكن تفسيره فيلولوجيًا وإشاريًا. ومن مميزات قراءة الثعلبي متعددة الطبقات للقرآن، رفضه الحصر لترجيح أي طبقة من طبقات

القراءة ولو تلميحيًا. كانت طبقات القراءة تتوالى واحدة تلو الأخرى وترتب (ترتيبًا يكاد يكون زمنيًا)، ولم يُنصح القارئ قط بتفضيل واحدة على الأخرى. ولم يكتف بإدراج التأويلات الإشارية، وهو فعل بارز للعيان في ذاته، بل عاملها على مصاف غيرها من طبقات القراءة. ويجدر بنا أن ننتبه إلى المزاج الذي أورد به الثعلبي التأويلات الإشارية. فلم يورد لذلك تبريرًا، ولم يقدم عن ذلك دفاعًا، ولم يبد فيه حرجًا؛ وكأن النظرة الإشارية كانت جزءًا من ثقافة عامة، وليست موضوع نزاع ونظر فكري في العصر الإسلامي الوسيط. إن تضمينه لهذه المادة إشارة جريئة وشهادة على حصافته، إذ سرعان ما انتقل التيار الفكري الصوفي بُعيد الثعلبي من الأطراف إلى المركز.

فما تبعات إدخال هذا اللون الجديد من التأويل في التراث التفسيري المعتاد؟ النتيجة الأولية لهذا الدمج تعميق النظر في النثر القرآني. وأعني بذلك أن لغة القرآن، وخصوصًا مع الوضوح الفيولوجي وصراحة البناء اللغوي، صارت أغنى بالمعاني، وأعني معاني لم يكن استخراجها ممكنًا أو متصورًا بالطرق المعتادة للمفسرين من أهل السنة حتى ذلك الحين. وفي الغالب يُكثر الثعلبي من نقل التأويلات الإشارية في المواضع التي تقل فيها المأثور التفسيري لوضوح الآيات وعدم ظهور إشكال فيها. وهو ما يستظهر من النص القرآني معاني كثيرة في كل طبقات تأويله (صالح 2004: 151-161).

ومع ذلك فلا ينبغي أن يظن المرء أن الثعلبي لم يزد على نقل ما وقف عليه من التأويلات الإشارية من غير تنقيح. فالملاحظ أن النقول الإشارية الواردة في الكشف لا تعلق لها بالغيبيات البتة. وأعني بذلك أن تعلقها ضعيف بالكلام عن ذات الله سبحانه وأكثر تعلقًا بعلاقة الله بالبشر. هذه الملاحظات نتيجة الاطلاع الأولي على ما أورد من مادة علمية، وتنتظر دراسة مفصلة تقارنها بتفسير السلمي قبل تقريرها. وسأضرب مثالًا للمنظور المعرفي لنهج الثعلبي في الكشف بتفسير الآية العاشرة من سورة النجم «فأوحى إلى عبده ما أوحى». وفي الآية عدد من المسائل التي تسترعي النظر. المسألة الأولى الإشارة المهمة للموحى بـ«ما»؛ فيتساءل المرء عما أوحى. المسألة الثانية، إيهام عبد الله الموحى إليه. أو على أقل تقدير، إن كنا نعلم أن النبي محمد ﷺ هو الراجح بالطبع – فقد لا يقر بعض المفسرين بهذا الترجيح. فلو كان المقصود بالوحي المباشر هو النبي ﷺ، فلم أرسل الله جبريل بالوحي في مواطن أخرى كما تخبر الآثار النبوية عن الوحي بالقرآن؟

يخبرنا اختيار المفسر للمسألة التي سيتناولها بالتفسير في الآية العاشرة من سورة النجم، عن نهج ذلك المفسر وما يهتم به أكثر مما يخبرنا عن معنى الآية في ذاته. فالطبري مثلًا، كان أكثر اهتمامًا بحل

مسألة إيهام المقصود بعبد الله في الآية. فبرغم من نقله عن عدد من العلماء الذين قالوا بأن الموحى إليه هو النبي ﷺ، فلم يقدّم لهذا التأويل وزناً. فلم يكن الطبي يريد أن يضعف ما استقر عليه فهم عملية الوحي في عصره. أما الثعلبي فقدّم للآية نظاماً تأويلياً أكثر نظاماً. أولاً، أورد احتمالين للمقصود بعبد الله: فيمكن أن يكون جبريل أو النبي ﷺ. ولم يصرح بحكم، فكلاهما تأويل مستساغ. لم يرجح أحدهما على الآخر. إنما كان أكثر اهتماماً بالمقصود بالاسم الموصول «ما». فيمكن أن يكون المقصود بالآية «فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى»، ويمكن أن يكون المعنى «فأوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى إليه ربه». وستظهر أهمية تكرار العبارة في موضع تال. كذلك يمكن أن يكون الموحى سورة كاملة من القرآن، هي سورة الشرح.

ثم أورد الثعلبي تأويلاً لم يُذكر من قبل. «أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك». وعلى هذا القول لم يكن ما أوحى به الله للنبي ﷺ سورة أو آية من القرآن، وهو ما كان يقال دوماً في تأويل ما أوحى إلى النبي، وإنما كان رسالة بنجاة الأمة المحمدية قبل سائر الأمم. وهنا يزول الإيهام. يبلغ القرآن دوماً رسالة واحدة، تظهر بتدقيق النظر: المسلمون ناجون.

بل وزاد الثعلبي على ما سبق نقلاً عن النوري، الصوفي البغدادي المتقدم (ت. 907/296)، أن الله أوحى إلى النبي «سراً». ثم يورد بيتين يفيدان معنى أن الأسرار بين المحبين لا تُفشى (وهنا المقصود بين النبي ﷺ وربه). وهنا نهج مختلف كل الاختلاف في تناول الإيهام في الآية فيما يتعلق بطبيعة ما أوحى إلى النبي. فالصوفي يرى أن نص الآية مبين لمعناها. وعليه فلا إشكال في الآية. لم يصرح الله بما أوحى إلى عبده لأنه سر لا ينبغي أن يُفشى. والظاهر أن من الصوفية من أراد أن يدعي أن النبي ﷺ تلقى وحياً غير القرآن، نوعاً من المعرفة اللدنية التي يُفتح عليهم بها.

ومع ذلك، فقد تبين أمر. إذ إنَّ الثعلبي قد أخبر القارئ بما أوحى الله به إلى النبي ﷺ. فسر القرآن إعلانه لحقيقة واحدة: أن الله سينجي أمة الإسلام. فتسمية ما أفشى سرّاً، يتيح الثعلبي للقارئ معايشة تجربة الوحي غضة في صورة حوار قريب مع الله. فللنقل التأويلية المتناثرة التي يوردها الثعلبي أثر تراكمي، بفضل الطريقة التي تُقدم بها. ففي البداية يقال لنا ما أوحى؛ ثم يقال لنا إن ذلك سر. فالقارئ عارف بالفعل بما أهم حتى أنه يلاحظ أنه ينبغي ألا يُصرح به كلاماً أو كتابة. فرسالة النجاة السارية في القرآن باطنة أجل من تُعبر عنها الكلمات وظاهرة للعيان في آن واحد.

## الأخبار الشيعية في تفسير الثعلبي

إنَّ نشر تفسير الثعلبي عام 2002 بتحقيق عالم شيوعي في بيروت بمنزلة ذروة قصة عجيبة عن تاريخ تلقي هذا الكتاب. وظهر أن في الكشف عن هذا التاريخ المعقد مفتاحًا لفهم تطورات مهمة في كل من تاريخ التفسير والسجال السني الشيعي في العصر الوسيط. فلا يقتصر الأمر على أن تفسير الثعلبي كان له دور تأسيسي في بناء الأسلوب الكلاسيكي الرفيع الذي عُرف به تفسير القرآن، بل إنه نص من أركان السجال بين السنة والشيعة. ومن دون فهم صحيح لتاريخ هذا النص لا يمكن فهم هاتين المسألتين.

عاش الثعلبي خلال فترة عصيبة من التاريخ السني؛ فقد توسع البويهيون والفاطميون على حساب البلاد السنية. فكان من سبل إضعاف الميل إلى التشيع، استعمال شيء كثير من لغته الوعظية ووجدانياته، وخصوصًا حب أهل البيت. فإذا أظهر أهل السنة مثل هذا الحب والتبجيل لأهل بيت النبي ﷺ وذريته، فإن ذلك مُضْعَفٌ لدعايا الشيعة القائمة على ما تعرض له آل البيت من مأس، ولانتزاع حقوقهم. وهذا تحديدًا ما رتبته الثعلبي في ثنايا تفسيره. فقد أورد في تفسيره تأويلات الشيعة لبعض الآيات القرآنية بأنها إشارة إلى علي ﷺ، ابن عم النبي ﷺ وصهره. ومع ذلك فلم يسمح بان يكون إيراد هذه النقول وسيلة لتسوية المذهب الشيعي. كان الثعلبي صريحًا في هجومه على الشيعة ومزاعمهم السياسية. فلم يتروك مذهب السنة، ولا رعى تعاطفًا شيعيًا. لم يكن في تفسيره موارد لموقفه من هذه المسائل. فقد كان لديه فهم سني عميق لتاريخ صدر الخلافة. أما ما أورده من أخبار من فضائل علي ﷺ فقد كانت مضمنة في شبكة دقيقة ضمن خطة مصممة لنزع أي دلالة أيديولوجية شيعية عن تلك الأخبار. فكانت الغاية جعل حب آل بيت النبي ﷺ من صميم مذهب أهل السنة، من دون أي لين مع الأيديولوجية السياسية الشيعية.

يظهر من ذلك أن إيراد الثعلبي لتلك المادة الشيعية في التراث التفسيري السني المعتاد لم يكن تسريًا لأفكار متعاطفة مع الشيعة إلى المنظور السني. وقطعًا لم يكن ذلك غفلة، ولا أنه كان حاطب ليل يجمع من أخبار الشيعة ما لا يميز، كما زعم ابن تيمية لاحقًا. لم ير الثعلبي أي تشيع في حب آل بيت النبي ﷺ وذريته؛ بل إن بحب أهل البيت تكون تزكية القلوب وتصحيح الإيمان. كان أمرًا من صميم مذهب السنة. ومن ثم فقد كان الثعلبي، بإيراده مادة علمية شيعية في تفسيره يجردها عن كل حجية شيعية، ويجعلها ضمن السياق السني. قُلِّمت أظافر الأخبار الشيعية بحيث يزال منها أي كره للصحابة، أو أي إشارة إلى تفاضل الخلفاء الراشدين، بتفضيل قرابة النبي ﷺ على الخلفاء الثلاثة الأول. فطالما لم يقل العالم السني بالإمامة، فلا يضير قدر حبه لأهل البيت، مهما زاد، فلا يجعله ذلك شيعيًا، ولا ينتقص

من سنينته (Saleh 2004: 186-187).

وينبغي أن يكون خطر هذا النهج واضحًا. فإن ما أورده الثعلبي من تأويلات شيعية، إذا نزع من منظومة الترتيب والاستدلال والحجج التي أقامها الثعلبي، يسهل على المناظرين الشيعة الاستدلال به على أفضلية علي عليه السلام، بل وإقرار السنة. وهذا ما حدث، إذ وجد أهل السجال من الشيعة في تفسير الثعلبي كنزًا ثمينًا من المواد الشيعية. إذا نُزعت من سياقها كانت حججًا قاطعة على السنة. ومكانة تفسير الثعلبي الرفيعة جعلته، بالفعل، واحدًا من أهم ما وقف عليه الشيعة. وسرعان ما تطلب الوضع ردًا شديدًا، ونهض أهل السنة، في شخص ابن تيمية لمجاهدة الوضع (Saleh 2004: 215-221). بذل ابن تيمية في كتابيه «مقدمة في أصول التفسير» (انظر Saleh 2004: 216-219)، ومنهاج السنة النبوية (Saleh 2004: 218-221) جهدًا يستهدف تقويض مكانة الثعلبي. وقد نجح في هذا حتى صار حكم ابن تيمية على الثعلبي الحكم السائد. كان غرض هجومه تقليل مكانة الثعلبي باعتباره عالمًا سنّيًا موثوقًا على ما عليه جمهور الأمة. وبهذا يصير خارج الجادة القويمية، ومن ثم تضعف حجج الشيعة القائمة على النقل عنه.

## الثعلبي وتفسير القرآن في العصر الوسيط

سيصير التيار الذي طوره الثعلبي، الذي سمّيته تراث التفسير الموسوعي، الشكل الشائع من التفسير في العصر الوسيط. وقد واجه هذا النهج تحديات كثيرة، ومع ذلك فقد بقيت هيمنته وتواصل وجوده. وهذا يتعلق أكثر ما يتعلق بمرونة التفسير، وفهم المفسر لوظيفته الأساسية: الدفاع عن المذهب السني وضبط معالمه. كان توسع الثعلبي في نهجه الموسوعي محاولة لحل الأزمة الثقافية التي هاجت في المجتمعات الإسلامية عبر أقطار العالم الإسلامي بين القرنين الرابع والسادس الهجريين. كان موضوع الأزمة روح الإنسان المتعلم داخل التكوين العربي الإسلامي. كان صعود الأدب ودواوينه الموسوعية الضخمة – باعتباره توصيفًا لما يجب أن يعرفه المتعلم ويعتني به – تعديداً لما يرجوه أصحاب العقلية الدينية من جعل القرآن مركزًا للخبرة التعليمية. ولم يكن الأدب الطرف الوحيد في هذه المعركة، بل كذلك كان التصوف، بما يدعيه من جمع بين فهم الظرف البشري وتقديم علاج له. وإن لم يكن هذان التياران اللذان كانا في قلب المجتمع السني، كفاية، فلا نغفل عن الخطر العظيم الذي يمثله المعسكر الشيعي على المجتمعات السنية. كان التشيع، أقصد المذهب الشيعي الفكري، يحرز تقدمًا

بعرض العالم الإسلامي مقوضًا الأسس الفكرية للتصور السني (ويكفي على ذلك دليلًا سيرة ابن سينا (ت. 1037/421) ومؤلفات الغزالي). فأقول، إنه يجب أن يُعزى إلى الثعلبي الفضل في النهوض أمام تيارات الأدب والتصوف والتشيع، لتأكيد مركزية القرآن بالتفسير السني في حياة المتعلمين.

كان الثعلبي أيضًا من أبناء مدرسة في التفسير سميتها المدرسة النيسابورية في التفسير. كتب تلميذه الواحدي ثلاثة تفاسير، أهمها «البسيط»، وهو ما زال غير محقق ولا منشور<sup>(7)</sup>. ولا نبالغ إن قلنا إن تفسير الواحدي كان ثوريًا. كذلك ممن تأثر بالثعلبي، الطيبي (ت. 1343/743). ولا يسعنا أن نتكلم عن هذا تفسيره إذ لم يتناوله أحد بالدراسة. ومن ثم فحتى حين نرد كتابًا لدراسة مؤلف مثل الثعلبي، فستكون الدراسة ناقصة إذ لا يمكننا تقدير أثر عمله حتى نرى كامل نطاق التراث المتاح بين أيدينا.

أما اعتبار سبب ضخامة المؤلفات التفسيرية بأنها عادة العصر الوسيط القهري في الجمع والنسخ، كما زعم بعض الباحثين المعاصرين، فهو إغفال للأسس الفكرية وما شغل أحد أهم العلوم الدينية في العصر الإسلامي الوسيط. وبرغم من أن العلوم الحديثة قد حلت محل أكثر علوم العصر الوسيط، إلا أن التفسير ما يزال في المركز علمًا يشكل المنظور الإسلامي إلى هذا اليوم. ومن المؤسف أن تاريخ التفسير في العصر الوسيط أقل المجالات المعنى بها في الدراسات الإسلامية. وسبب التجاهل مركب من اتفاق الباحثين الغربيين والمفكرين العرب على عدم رؤية كبير فائدة في دراسة الإنتاج الفكري في العصر الوسيط. كان اهتمام القوميون العرب وحركتهم الفكرية بالأدب العربي في العصر الوسيط، ولم يروا كبير فائدة في بذل أي جهد في إصدار تحقيقات علمية لتفاسير القرآن الكبيرة؛ ونتج عن ذلك عدم تحقيق أي تفسير كبير على أيدي كبار العلماء العرب؛ وأما الباحثون الغربيون فكانوا أكثر اهتمامًا بتاريخ التراث التفسيري المبكر، ولم يكن لهم إلا اهتمام سطحي بالفترات اللاحقة. ونتج عن ذلك أننا نفتقد أي تواصل مع كامل نطاق هذا التراث. ولكن مؤخرًا، بدأ الأمر في التحسن، إذ ظهر اهتمام بنشر هذا التراث (نتيجة لصعود التيار الإسلامي في العالم العربي وتراجع القومية العربية بوصفها منظورًا فكريًا). لكن المطلوب فعلًا تغيير النمط التعاقبي في دراسة التفسير، إلى نمط منهجي نظامي يدرس المصنفات التفسيرية في شكل دراسات مفردة عن مؤلفين ومؤلفات مفردة. مازلتنا في أولى المراحل المبكرة لرسم معالم تاريخ هذا الفن، وأعلامه الفكرية الذين برزوا أساسًا في التفسير، مثل الواحدي والبغوي (ت. 1122/516)، والزمخشري (ت. 1144/528)، والرازي والطيبي والبيضاوي (ت. 1282-/685-716) (1316)، وغيرهم الكثير، فلم يُتناولوا بعد بالاهتمام الذي يستحقونه.

(7) طُبِعَ مؤخرًا في خمسة وعشرين مجلدًا، عن عدد من الرسائل الجامعية، عن دار العبيكان. (المترجم)

## للاستزادة

Goldfeld, Isaiah (1984) Qur\_ānic Commentary in the Eastern Islamic Tradition of the First Four Centuries

of the Hijra: An Annotated Edition of the Preface of al-Tha\_labi's "Kī\_tā\_b al-Kashf wa\_l-Bayān

\_an Tafsi\_r al-Qur\_ān." Srugy Printers and Publishers, Acre.

Saleh, Walid A. (2004) The Formation of the Classical Tafsi\_r Tradition: The Qur\_ān Commentary of

al-Tha\_labi. E. J. Brill, Leiden.

الثعلبي (2002) الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي، ت. أبي محمد بن عاشور. دار إحياء

التراث العربي. بيروت.